الحلقة الثانية ٢

صفحة مطوية من جهود علماء أفريقية

من أعلام الجزائر

الشيخ العالم المجدّد عبد الحميد بن باديس

رحمه الله تعالى

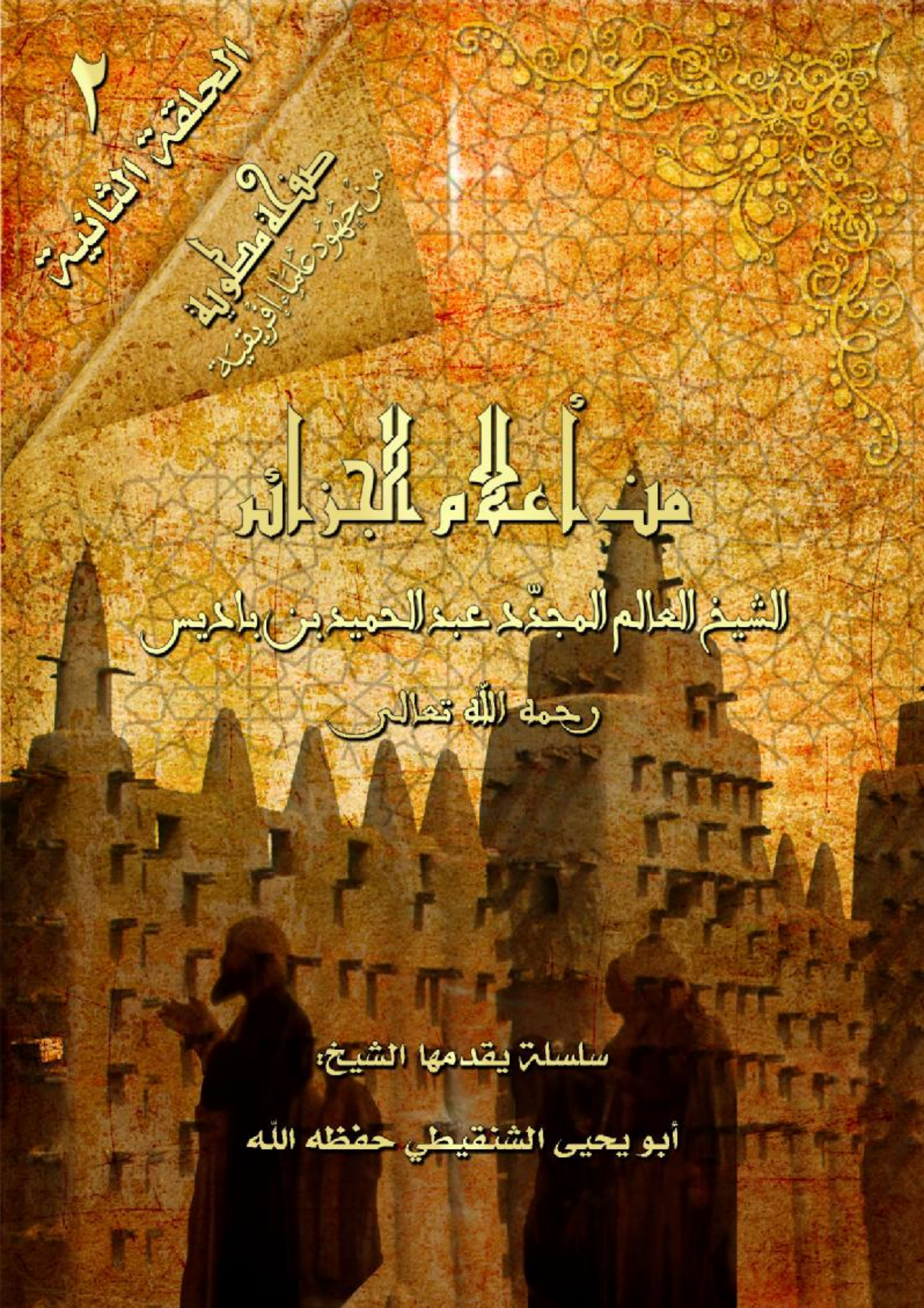

سلسلة يقدمها الشيخ:

أبو يحيى الشنقيطي حفظه الله

سلسلة يقدمها الشيخ:

أبو يحيى الشنقيطي حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

شَعْبُ الجزائرِ مُسْلِمٌ وَإلىَ العُروبةِ يَنتَسِبُ
مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أصْلِه أَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذبْ
أَوْ رَامَ إدمَاجًا لَهُ رَامَ المُحَال من الطَّلَبْ
يَانَشءُ أَنْتَ رَجَاؤُنَا وبِكَ الصَّباحُ قَد اقْتَربْ
خُذْ للحَياة سلاَحَها وَخُضِ الخُطُوبَ وَلاَ تَهبْ
وَٱرفعْ مَنارَ ٱلعَدْلِ وَالإ حْسانِ واصْدُمْ مَن غَصَبْ
وَاقلَعْ جُذورَ الخَائنينَ فَمنْهُم كُلُّ ٱلعَطَبْ
وَأَذقْ نفُوسَ الظَّالمينَ سُمًّا يُمْزَج بالرَّهَبْ
وَاهْزُزْ نفوسَ الجَامدينَ فَرُبَّمَا حَيّ ٱلخشَبْ
مَنْ كَان يَبْغي وَدّنَا فعَلَىٰ ٱلكَرامَة وَالرّحبْ
أوْ كَانَ يَبْغي ذُلّنَا فَلَهُ المَهَانَةُ والحَرَبْ
هَذَا نظامُ حَيَاتنَا بالنُّور خُطّ وَباللّهَبْ
حتّى يَعودَ لقَومنَا من مَجدهم مَا قَدْ ذَهَبْ
هَذا لكُمْ عَهْدِي بهِ حتّى أوَسّدَ في التُّرَبْ

قصيدة قالها الشيخ عبد الحميد بن باديس ردا على دعاة الإدماج والقائلين بأن الجزائر فرنسية

في مدينة قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري، ومن أسرة عريقة في المجد والثراء والعلم والتَّدين والخلق؛ وُلد العالم الشيخ عبد الحميد بن باديس عام 1308 هـ/ 1889م نسبة إلى الأسرة الباديسية المشهورة في تاريخنا الإسلامي العريق؛ والتي ذاع صيتها وسوّدت بأخبارها صفحات كتب التاريخ.

فمن منا يجهل المعز بن باديس (406-453) ذلك الرجل الشهم النبيل؛ الذي لو لم يكن من مواقفه؛ إلا وقوفه في وجه الزحف الرافضي؛ وإبعاده لنفوذ العُبيدي (الفاطمي) عن المغرب لكان ذلك كافيا؛ ناهيك عن عمله المبدع والذي تمثل في تنظيم انفصال المغرب الإسلامي سياسياً ومذهبياً عن الحكم العبيدي، مع جهاده للشيعة الرافضة في إفريقية، وحمل الناس على اعتناق المذهب السني، بعيدا عن طرق أهل الأهواء والنحل الملتوية، مما يدل على (عبقرية الرجل و طول نفسه في باب السياسة والنهوض بالأمم. وقد كان الشيخ عبد الحميد يفتخر بأعمال هذا الجد المبارك، وحق له أن يفتخر بمن هذه أعماله. وكأنه غرس في نفسه الأبية؛ قول القائل:

فقوموا قيام الجد لا فل حـدكم وكونوا على الأعداء شملا منظما

فيا أهل بيت العز قوموا بعزكم وحلوا بحيث العز حل وخيما!

أما والده محمد المصطفى فهو من كبار الموظفين والوجهاء في قسنطينة، وعضو المجلس الجزائري الأعلى، وقد عرف دائماً بدفاعه عن مطالب السكان المسلمين في قسنطينة؛ والبحث عن السبل التي تُسترد بها حقوقهم، وقد شهد له الشيخ عبد الحميد شهادة الابن البار الوفي لوالده المعترف بجميله؛ فيقول عنه: (إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة أتبعها، ومشرباً أرده، وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً.).انتهى

لم يحاول الوالد محمد المصطفى جعل عوائق في طريق ابنه؛ أو كبحه عن طريق الدعوة إلى الله تعالى؛ أو إدخاله مدارس المستعمر؛ التي كانت وجهت أبناء كثير من الموظفين آنذاك.

نشأ الشيخ عبد الحميد بن باديس في هذه البيئة العلمية، فقد حفظ القرآن وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ثم تتلمذ على الشيخ (أحمد أبو حمدان لونيسي)، فكان من أوائل الشيوخ الذين لهم أثر طيب في سلوكه، ولا ينسى الشيخ عبد الحميد بن باديس أبداً وصية هذا الشيخ له: (اقرأ العلم للعلم لا للوظيفة)، بل أخذ عليه عهداً ألا يقرب الوظائف الحكومية عند فرنسا!؛ فتأمل أيها القارئ الكريم تلك الوصية الذهبية؛ تفهم خطر ما عليه كثير ممن فتنوا بأبواب الظلمة وطرقها صباح مساء! .

الرحلة في طلب العلم لجامع الزيتونة :

في عام 1908 قرّر الشيخ عبد الحميد بن باديس – وهو الشاب المتعطش للعلم – أن يبدأ رحلته العلمية الأولى إلى تونس، وفي رحاب جامع الزيتونة الذي كان محفلا من محافل العلم؛ يُشبه في ذلك الأزهر في مصر وتنمبكتو بمالي وشنقيط. وفي الزيتونة تفتحت آفاق الشيخ وتلاقحت أفكـاره بأفكار غيره، وعبّ من العلم عبًّا، والتقى بالعلماء الذين كان لهم تأثير كبير في شخصيته وتوجهاته. وقد أجاد وأفاد من قال:

ومـــا العقل إلا زين لأهلـــــــه ولكن تمام العقل طول التجارب

وممن كان له تأثير كبير في شخصية الشيخ ابن باديس، الشيخ محمد النخلي الذي غرس في عقل الشيخ عبد الحميد بن باديس غرسة الإصلاح وعدم تقليد الشيوخ تقليدا أعمى، وأبان له عن المنهج الصحيح في فهم القرآن وتدبره وتفسيره.

كما أثار فيه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور حبّ لغة الضاد وتذوّق جمالها وبيانها ورونقها.

وأما الشيخ البشير صفر فقد أثر في الشيخ في مسألة مشكلات المسلمين المعاصرة وما يعانونه من نوائب تبكي الصخر؛ وكيفية التخلص من الاستعمار الغربي الغاشم وآثاره على أمتنا المسلمة. وهنا ندرك أهمية الشيوخ ولزوم ركابهم؛ وأخذ العلم من أفواههم، وهذا شيء يدركه من ثنى الركب في مجالس العلماء؛ ورحل إليهم؛ على حد قول أبي الطيب المتنبي:

لا يعرف العشق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيهـــا

تخرج الشيخ عبد الحميد من الزيتونة:

تخرج الشيخ عبد الحميد من الزيتونة عام 1912 وبقي عاماً آخر للتدريس حسب ما تقتضيه تقاليد هذه الجامعة العلمية، وعندما رجع إلى الجزائر؛ لم يكن حلس بيته خازنا لمعلومته، بعيدا عن جراح مجتمعه؛بل شرع على الفور بإلقاء دروس في الجامع الكبير في قسنطينة، ولكن خصوم الإصلاح والدعوات تحركوا لمنعه؛ وتلك سجية أعداء الدعوات، فقرر حينها القيام برحلة ثانية لزيارة أقطار المشرق العربي.

في المدينة النبوية :

بعد أداء فريضة الحج مكث الشيخ عبد الحميد بن باديس في المدينة المنورة ثلاثة أشهر، ألقى خلالها دروساً في المسجد النبوي، والتقى بشيخه السابق (أبو حمدان لونيسي) وتعرف على رفيق دربه ونضاله – فيما بعد – الشيخ البشير الإبراهيمي الجزائري رحمه الله. وكان هذا التعارف من أنعم اللقاءات وأبركها، فقد تحادثا طويلاً عن طرق الإصلاح في الجزائر واتفقا على خطة واضحة في ذلك. وفي المدينة اقترح عليه شيخه (لونيسي) الإقامة والهجرة الدائمة، ولكن الشيخ (حسين أحمد الهندي) المقيم في المدينة أشار عليه بالرجوع للجزائر لحاجتها إليه، فكانت خير نصيحة.

زار الشيخ عبد الحميد بن باديس بعد مغادرته الحجاز بلاد الشام ومصر، واجتمع برجال العلم والأدب وأعلام الدعوة السلفية، وزار الأزهر واتصل بالشيخ بخيت المطيعي حاملاً له رسالة من الشيخ (الونيسي) .

العودة إلى الجزائر :

وصل الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى الجزائر عام 1913 واستقر في مدينة قسنطينة ، وشرع في العمل التربوي الذي صمم عليه، وهو إنقاذ أطفال المسلمين وشبانهم من هوة الجهل والتخلف، سالكا مسلك الربانين، فبدأ بدروس للصغار ثم للكبار، والمسجد هو المركز الرئيسي لنشاطه، ثم تبلورت لديه فكرة تأسيس جمعية العلماء المسلمين . ولكن نشاط الشيخ كان متعدداً، واهتماماته كثيرة لا يكتفي أو يقنع بوجهة واحدة، فاتجه إلى الصحافة وذلك لما للإعلام من أهمية في مسيرة الدعوة، وللاستفادة من وسائل العصر الحديثة، وأصدر جريدة (المنتقد) عام 1925 وأُغلقت بعد العدد الثامن عشر؛ فأصدر جريدة (الشهاب) الأسبوعية، التي بث فيها آراءه في الإصلاح، وخاصة إصلاح عقائد الناس من الخرافات والدجل وأساليب الطُّرُقيين؛ لأن التوحيد هو رأس المال؛ ومن المقرر عند العقلاء أن الحفاظ على رأس المال مقدم ولاشك على الربح. استمرت جريدة الشهاب حتى عام 1929 ثم تحولت إلى مجلة شهرية علمية، وكان شعارها قول إمام أهل المدينة مالك بن أنس رحمه الله: (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها)، وتوقفت المجلة في شهر شعبان 1328هـ/ أيلول عام 1939م بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية، وحتى لا يُكتب فيها أي شيء تريده الإدارة الفرنسية تأييداً لمواقفها الظالمة اتجاه شعب الجزائر. وفي سنة 1936

دعا إلى مؤتمر إسلامي يضم التنظيمات السياسية كافة من أجل دراسة قضية الجزائر، وقد وجه دعوته من خلال جريدة (لاديفانس) التي تصدر بالفرنسية، واستجابت أكثر التنظيمات السياسية لدعوته وكذلك بعض الشخصيات المستقلة، وأسفر المؤتمر عن المطالبة ببعض الحقوق للجزائر، وتشكيل وفد سافر إلى فرنسا لعرض هذه المطالب، وكان من ضمن هذا الوفد الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ الطيب العقبي ممثلين لجمعية العلماء، ولكن فرنسا لم تستجب لأي مطلب وفشلت مهمة الوفد .

إن هذه الدعوة للمؤتمر وحضوره ، وذهاب وفد العلماء إلى فرنسا كانت اجتهاداً من الشيخ عبد الحميد بن باديس – رحمه الله – يرى فيه مصلحة الجزائ ومثل هذا الخطأ من الشيخ عبد الحميد بن باديس؟! لا ينبغي أن يحجب عنا العمل العظيم الذي قام به وهو قيادة جمعية العلماء منذ تأسيسها عام 1931م وحتى وافاه الأجل عام 1940م (وهو المحافظة على مقومات الشخصية للشعب الجزائري والمتمثلة في الدين واللغة العربية، وذلك عن طريق إنشاء الكتاتيب القرآنية، والمدارس التعليمية، والمعاهد العلمية، في شتى أنحاء الجزائر، وكذا جهاد البيان الذي تقتضيه تلك المرحلة، عن طريق إنشاء الصحف والمجلات، زيادة على مجهودات أعضاء الجمعية الدعوية، والتي مثلت جهود المحافظة عليهما (الدين واللغة) من طرف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أعظم حاجز أمام المستعمر الفرنسي الذي كان يرمي للقضاء عليهما حتى يسهل عليه دمج ومزج الشعب الجزائري بالشعب الفرنسي ثقافيا حتى يتحقق له حلمه الذي طالما سعى السعي الحثيث لتحقيقه وهو (الجزائر الفرنسية)، وشاهد هذا ما قامت به السلطات الفرنسية بعد مرور مائة عام على احتلالها للجزائر، حيث أرادت أن تثبت للعالم أنها احتلت عقول وقلوب أهل الجزائر وأن حلمها الآنف الذكر قد تحقق، وأن الصليب، قد هزم القرآن!! حيث أقامت احتفالا بمناسبة الذكرى المذكورة (100 سنة على احتلال الجزائر)، ودعي إليه كبار الساسة والقادة من الفرنسيين وغيرهم، وعمدت إلى عشر فتيات جزائريات مسلمات ـ لتثبت صحة الدعوى ـ، فلقنتهن اللغة الفرنسية، وعلمتهن الثقافة الفرنسية، حتى أصبحن مثل الفرنسيات تماما، والغرض أن تخرج تلك الفتيات باللباس الإفرنجي، واللسان الفرنسي في ذلك الاحتفال، وإذا بالفتيات المذكورات يخرجن بلباسهن الإسلامي الجزائري!!، وهنا ثارت ثائرة الصحف الفرنسية وتساءلت: ماذا صنعت فرنسا بعد مرور مائة عام على احتلالها للجزائر؟!، وقد تولى الإجابة على هذا التساؤل (لاكوست) وزير المستعمرات الفرنسي قائلا: وماذا أصنع

إذا كان القرآن أقوىٰ من فرنسا؟!!!، وهذا العمل الجبار (المحافظة علىٰ شخصية المسلم الجزائري) الذي قامت به جمعية العلماء هو الذي مهد بعد ذلك لثورة التحرير عام 54 أن تنطلق، ولولاه لنجحت فرنسا في مسعاها (تنصير أهل الجزائر) ولامتنع علىٰ الثورة أن تقوم، إذ كيف يثور من احتل عقله وقلبه،وهل يثور فرنسي علىٰ فرنسا؟!.

فجمعية العلماء كانت ـ بفضل الله ـ المصنع الذي صنَّع الرجال، كما كانت حصن الأمة الحصين في وجه التغريب ورد عادية الصليب.

فجزاهم الله خير ما جزىٰ مصلحا عن أمته.

وفقدت الجزائر بفقده عالماً مجدداً ومصلحاً مربياً، وضع كل جهده وإمكاناته لرفع شأن المسلمين في الجزائر، ولم يشغله ذلك عن أوضاع المسلمين في كل مكان .

العوامل المؤثرة في شخصية الشيخ عبد الحميد بن باديس :

لا شك أن البيئة الأولىٰ لها أثر كبير في تكوين شخصية الإنسان، وفي بلد كالجزائر عندما يتفتح ذهن المسلم علىٰ معاناته من فرنسا، وعن معاناته من الجهل والاستسلام للبدع، فسيكون هذا من أقوىٰ البواعث لأصحاب الهمم وذوي الإحساس المرهف علىٰ القلق الذي لا يهدأ حتىٰ يحقق لدينه ولأمته ما يعتبره واجباً عليه، وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس من هذا النوع.

وإن بروز شخصية كالشيخ عبد الحميد بن باديس، من بيئة ثرية ذات وجاهة، لَهو دليل علىٰ إحساسه الكبير تجاه الظلم والظالمين، وكان بإمكانه أن يكون موظفاً كبيراً ويعيش هادئاً مرتاح البال، ولكنه اختار طريق المصلحين.

والفضل الأكبر يعود إلىٰ الله ثم إلىٰ الفترة الزيتونية ورحلته الثانية إلىٰ الحجاز والشام حيث يعرف علىٰ المفكرين والعلماء الذين تأثروا بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وما دعا إليه من نقاء العقيدة وصفائها.

وكان لمجلة (المنار) التي يصدرها الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله أثر قوي في النظر لمشكلات المسلمين المعاصرة والحلول المطروحة.

ومما شجع الشيخ عبد الحميد بن باديس وأمضىٰ عزيمته وجود هذه العصبة المؤمنة حوله، وقد وصفهم هو بالأسود الكبار – من العلماء والدعاة أمثال الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ العربي التبسي والشيخ العقبي والشيخ مبارك الميلي... وقد عملوا معه في انسجام قلّ أن يوجد مثله في الهيئات الأخرىٰ .

آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس :

شخصية الشيخ عبد الحميد بن باديس شخصية غنية ثرية، ومن الصعوبة في حيز ضيق من الكتابة الإلمام بكل أبعادها وآثارها؛ فهو مجدد ومصلح، يدعو إلى نهضة المسلمين ويعلم كيف تكون النهضة؛ حيث يربط هذه النهضة برجوع المسلمين للمنبع الصافي بعيدا عن ما يلوِّث العقيدة الصافية؛ فيقول: (إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله، إذا كانت لهم قوة، وإذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآثر، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة).

وهو عالم مفسر، فسر القرآن كله خلال خمس وعشرين سنة في دروسه اليومية، كما شرح موطأ مالك خلال هذه الفترة.

وهو سياسي محنك يكتب في المجلات والجرائد التي أصدرها عن واقع المسلمين، خاصة في الجزائر، ويهاجم فرنسا وأساليبها الاستعمارية، ويشرح أصول السياسة الإسلامية، وقبل كل هذا هو المربي الذي أخذ على عاتقه تربية الأجيال في المدارس والمساجد، فأنشأ المدارس واهتم بها، بل كانت من أهم أعماله.

وهو الذي يتولى تسيير شؤون جمعية العلماء المسلمين، ويسهر على إدارة مجلة الشهاب ويتفقد القاعدة الشعبية باتصالاته المستمرة.

إن آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس آثار عملية قبل أن تكون نظرية في كتاب أو مؤلَّف، والأجيال التي رباها كانت وقود معركة تحرير الجزائر، وقليل من المصلحين في العصر الحديث من أتيحت لهم فرص التطبيق العملي لمبادئهم كما أتيحت للشيخ عبد الحميد بن باديس؛ فرشيد رضا كان يحلم بمدرسة للدعاة، ولكن حلمه لم يتحقق...

وخلاصة نظرية الشيخ عبد الحميد بن باديس في التربية، أنها لا بد أن تبدأ من الفرد، فإصلاح الفرد هو الأساس. وطريقته في التربية هي توعية هذا النشء بالفكرة الصحيحة كما ذكر الشيخ البشير الإبراهيمي عن اتفاقهما في المدينة: (كانت الطريقة التي اتفقنا عليها سنة 1913 في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم وإنما نربيه على فكرة صحيحة).

وينتقد الشيخ عبد الحميد بن باديس مناهج التعليم التي كانت سائدة، حين تلقيه العلم والتي كانت تهتم بالفروع والألفاظ، فيقول: (واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية، مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة، تفني الأعمار قبل الوصول إليها) [ابن باديس حياته وآثاره د. عمار طالبي: 2/ 138 ، ط. دار الغرب الإسلامي]

صورة لبعض أعضاء جمعية العلماء المسلمين، يتوسطهم الشيخ عبد الحميد بن باديس

إنتاجه العلمي:

أما إنتاجه العلمي فهو ما جُمع بعدُ من مقالاته في (جريدة الشهاب) وغيرها، ومن دروسه في التفسير والحديث، مع الأسف لم يصلنا كل ما كتبه، أو كل ما ألقاه من دروس في التفسير والحديث، وقد جُمع ما نشر في (جريدة الشهاب) من افتتاحيات تحت عنوان [مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير] بإشراف محمد الصالح رمضان، وتوفيق شاهين، وحاول الدكتور عمار الطالبي جمع آثاره كلها، ولكن لا يزال هناك أشياء لم تُجمع كما يذكر الجامعون والمهتمون بآثار الشيخ رحمه الله.

وهكذا أخي القارئ الكريم:

طُويت صفحة عالم نحرير جهبذ؛ عاش أفراح أمته وأتراحها؛ جمع بين العلم والفهم لواقعه؛ والنهل مما حوله من وسائل مشروعة؛ ولم يكن حبيس المحاريب، بل كان يحمل معه الموازنة في بناء جيل يحمل همّ الجزائر والأمة المسلمة؛ ليخرجها من قيود الظلم واالتسلط؛ لتمتشق سيوف الحرية والإباء؛ وليعرف الفرد المسلم قيمته؛ فلا يحتقر نفسه ويعيش مطأطِ الرأس منتكس الهمة خوارا جبانا؛ لا يصلح لساقة ولا قيادة.

فرحمك الله يا ابن باديس؛ وستظل سيرتك العطرة نبراسا للمجاهدين والمصلحين من العلماء الربانين على مرّ العصور.

وإنّ على شباب الأمة عامة والجزائر خاصة؛ أن يدركوا أن مشوار الشيخ عبد الحميد بن باديس لم ينتهي بعد؛ فلا يزال أبناء ديغول وخريجي دفعة لاكوست؛ على أرض الجزائر بلد الشهداء؛ ينفذون مخططات فرنسا؛ ويفرضوها بقوة الحديد والنار؛ على شعب الجزائر؛ فأين أحفاد الشيخ عبد الحميد ابن باديس؛ ليعيدوا الأمور لنصابها؟

لا نشك أنهم على الجادة قد لاحت راياتهم.. وبرزت أسماؤهم.. وقريبا يسفر فجرهم.. لتعلوَّ الابتسامة وجوه أهلنا المستضعفين على أرض الجزائر؛ الذين يعانون من الظلم والتهميش من طرف عصابة قصر المرادية مالله به عليم؛ وحينها يكون القصاص وينتقم المظلوم من ظالمه؛ ﴿**ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا**﴾.

نسأل الله أن يبرم لأمتنا أمر رشد، يُعز فيه أهل طاعته؛ ويذل فيه أهل معصيته؛

هذا والله اعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وإلى حلقة قادمة من هذه السلسة

كتبه أخوكم: أبو يحيى الشنقيطي